الباب الثانى

الطبقات وجماعات الصفوة

الفصل السادس : فى البحث عن البروليتاريا ٠

الفصل السابع : البناء الطبقى والوعى الاجتماعى ٠

الفصل الثامن : الطبقة والسياسة فى أوربا الغربية ٠

الفصل التاسع : الصفوة الادارية ٠

الفصل العاشر : الاتساق والانقسام فى جماعات الصفوة فى الهند ٠

الفصل السادس

فى البحث عن بروليتاريا (١)

كتب الن تورين Alain Touraine يقول « يوجد الآن نمط جديد للمجتمع فى طور التشكل . ويمكن أن توصف هذه المجتمعات الجديدة بأنها مجتمعات ما بعد الصناعة Post - industrial وذلك لتمييزها عن المجتمعات الصناعية التى سبقتها ... كما يمكن أن يطلق عليها المجتمعات التكنوقراطية بسبب طبيعة القوة التى تتحكم فيها ، أو يمكن أن يطلق عليها المجتمعات المبرمجة Programmed Societies وذلك اذا عرفناها فى ضوء طبيعة الأساليب الانتاجية والتنظيمات الاقتصادية »(٢) .

ولا يختلف هذا الوصف عن أوصاف أخرى قدمها عدد آخر من الكتاب . فقد لاحظ برجنسكى Brezezniski - على سبيل المثال - أن « أمريكا تعيش فى خضم تحول يبدو أنه فريد ومحير ... فهى لم تعد مجتمعا صناعيا ، فالتكنولوجيا والاليكترونيات فى سبيلها الى أن تطبع المجتمع بطابعها الى أبعد الحدود ، الامر الذى يجعل أمريكا أول **مجتمع تكنوقراطى** »(٣) . وفى نفس الوقت اكد دانيال بل Bell فى مقاله المعنون « ملاحظات على مجتمع ما بعد الصناعة »(٤) على الأهمية

---

(١) اعيد نشره هنا مع تعديلات طفيفة من المصدر التالى :
New York Review Book, XV11 (6) (April 1972).

(٢) **The Post - Industrial Society** (New York, 1971) P. 3.

(٣) Zbigniew Brzezinski, " The American Transion " **New Republic** 157 (23 December 1967) PP. 18 - 21; Reprinted in : **Information Technology in Democracy**, Edited by Alan F. Westin (Cambridge, Mass, 1971) PP. 161 - 7.

(٤) **The Public Interest** 6 and 7 (Winter, 1967 and Spring 1967) PP. 24 - 35 and 102 - 18.

المحورية للمعرفة النظرية فى نظـام الانتـاج ، والتحول من الاقتصـاد الصناعى الى اقتصاد الخدمات ٠

وفى الوقت الذى تتشابه فيه من حيث المبدأ مختلف أوصاف المجتمع الجـديد ، تختلف التفسيرات المتصلة بالطـابع التـاريخى والامكانيات المحتملة لهذا المجتمع الجديد ٠ فبرجينسكى ، وبل ، يفهمان هذا المجتمع على أنه مجتمع تم فيه التغلب على الانقسامات الاجتماعية الرئيسية(٤) ، وأصبحت سيطرة جماعات الصفوة ذات الكفاءة الفنيـة العاليـة مقبولة تقريبـا ، كما أضحى الخط العـام للتطور يتحدد من خـلال عملية نمو اقتصادى متناغمة نسبيا ٠ وظهرهنا الادعاء بالقول بأن مثل هذا المجتمع لا يعرف أى مظهر من مظاهر الانشقاق الواسعة النطاق :

« فيبدو من غير المحتمل أن تظهر (فى هـذا المجتمع) ايديولوجية للعمـل السياسى قادرة على كسب ولاء واسع النطاق بنفس الطريقة التى ظهرت بها الماركسية كاستجابة للمجتمع الصناعى ٠٠٠ فالمفـكر المنشق ذو العقلية الايديولوجية ، وذو التوجية الانسانى ، والذى كان يقوم بدور فى اثارة مظاهر النقد الاجتماعى ، هذا المفكر قـد استبدل اما بخبراء ومتخصصين ممن أصبحـوا منخرطين فى مسئوليـات حكوميـة ، أو مفكرين يعملون فى الواقع كمنظرين ايديولوجيين لأولئـك الذين يحتلون مراكز قـوة ، ووظيفتهم هى تقـديم اطـار فكرى متـكامل للافعـال المتناقضـة »(٥) ٠

ويختلف رأى تورين عن ذلك اختـلافا كليـا ٠ فقـد ذهب الى أن

---

(٤) وعبر عن نفس الفكرة ريمون آرون Aron فى الكثير من كتاباته عن المجتمع الصناعى الحديث خاصـة فى مؤلفه المعنون :
— Progress and Disillusion (New York, 1968) P. 15
حيث كتب يقول : « توحى الخبرة بمعظم المجتمعات المتطـورة بأن التنافس شـبه السـلمى بين الجماعات الاجتماعية يحل تدريجياً محل الصراع العنيف الذى يهـدف الى أن تستبعد طبقـة معينـة طبقـة اخـرى » ٠ ولقـد كان لدانيـال بل ، بعض الاعتراضـات على عرض لارائه وتم تبادل الحوار بيننا على صفحات :
New York Review of Books, XV111 (11) (15 June, 1973). P.38.

(٥) Brzezinski, OP. cit.

الصراع بين رأس المال والعمل قد بدأ يفقد أهميته المحورية فى المجتمعات الصناعية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، غير أن اشكالاً جديدة من السيطرة domination (توجد فى المجتمعات الاشتراكية أيضا) بدأت تحرك بعض مظاهر جديدة للصراع الاجتماعى ـ بين هؤلاء الذين الذين انحصر دورهم فى المشاركة السياسية التابعة(٦) · فالطبقة المسيطرة الجديدة لم تعد تتحدد بناء على التملك ، ولكن بناء على « المعرفة وعلى مستوى معين من التعليم » · وتنبع الثورة ضد هذه الطبقة من رغبة الطبقة التابعة فى التخلص من تبعيتها والشروع فى تحقيق قدر من الاستقلال · ولقد دعم تورين فكرة الطبيعة المتغيرة للصراع الاجتماعى هذه ، من خلال الاشارة الى ظهور حركات اجتماعية جديدة ، خاصة تلك التى شاركت بدور حاسم فى ثورة مايو ١٩٦٨ فى فرنسا · وعلق تورين على هذه الحركة قائلا :

« ينحصر أحد الجوانب ذات الدلالة فى حركة مايو فى أنها قد أظهرت أن الحساسية تجاه الموضوعات الأساسية للصراع الاجتماعى لا تظهر فى القطاعات الاكثر تنظيما للطبقة العاملة · فلم يستوعب عمال السكك الحديدية ، وعمال السفن ، وعمال المناجم بوضوح ، الاهداف الراديكالية لهذه الحركة · وظهرت اكثر الحركات راديكالية وابداعا بين الجماعات ذات المستوى الاقتصادى الأفضل : فى هيئات البحث ، وبين الفنيين الذين يملكون المهارات دون السلطة ، وفى الجامعات بطبيعة الحال »(ص ١٨) ·

ولاحظ تورين أن ذلك الرأى لا يمثل تكرارا « لموضوعات غير ذات معنى مثل القول بنهاية الطبقة العاملة » · فمن المؤكد أنه « لا توجد حركة اجتماعية سياسية مهما عظمت أو وهنت درجة قوتها ، تستطيع أن

---

(٦) توجد المشاركة التابعة Dependent Participation عندما تصبح « علاقة الفرد الوحيدة بأساليب التوجيه الاجتماعى والثقافى لمجتمعه ، وهى تلك التى تعتبرها الطبقة الحاكمة تتفق مع المحافظة على سيطرتها الخاصة ··· ان مجتمعنا هو مجتمع اغتراب ، لا بسبب أنه أفضى بالناس الى البؤس ، أو أنه يفرض ضوابط بوليسية ، ولكن لأنه ينتزع الولاء والتوافق انتزاعاً عن طريق الخداع والسيطرة والقوة » (ص ٩) ·

تنمـو دون أن تضع تحت لوائهـا الطبقـة العاملة ، والتى تضم السواد الأعظم من العمـال التابعين » · ولـكن السؤال المحـورى المطروح هنا يختلف الى حد ما ؛ وهو يتصـل بما اذا كان بامكاننا أن نفكر بعـد ذلك فى الطبقة العاملة ـ ووفقا للمنظور الماركسى ـ على أنها المحرك الاساسى للصراعات الاجتماعيـة والاداة المتميزة للترميز التاريخى · ذهب تورين معتمدا فى تحليله بشكل أساسى على الحركات والصراعات الاجتماعية فى الستينات ، الى القول بأنه لايمكن :

« لحركة طبقية فى المجتمعات الحديثة أن تعبر عن نفسها من خلال النضال السياسى المباشر ورفض الاغتراب : بمعنى الثورة ضـد النسق الذى يقـوم على التـكامل والسيطرة · والشىء الجوهرى هنـا (يقصد فى الحركات الاجتماعيـة الجديدة) هـو التأكيـد المتزايد على الفـاعل السياسى والثقافى دون الفاعل الاقتصادى · وهـذا هو الاختلاف الكبير الذى يميز هـذه حركات عن الحركة العماليـة ، التى تشكلت لمعارضة الرأسمالية الليبراليـة · ان هـذه الحركات ماتزال فى بدايتها بعـد ، ولكنها تتحدث دائما عن القـوة دون أن تتحدث عن المرتبـات والعمالة والملكية » · (ص ٧٤) ·

ويقترن ظهور هـذه الصراعات الاجتماعية الجديدة عنـد تورين بتطور مواجهـة فكرية بين نوعين من علم الاجتمـاع · فهناك من ناحية علم اجتماع القرار Sociology of decision وهو يهتم بالتحكم فى التوترات الاجتماعيـة ، والتكيف ، ومصالحة الجماعات المتخاصمـة · انه عـلم الاجتمـاع الذى يقـوم على شئونه ـ بمفهـوم برجنسكى ـ الخبـراء والمنظرون الايديولوجيون الذين يخدمون الـدولة · وهنـاك من ناحيـة أخرى عـلم اجتماع المعارضة Sociology of opposition وهو العلم الذى يسعى الى تفسير دلالة ، واتجاهات وأهـداف الحركات الاجتماعية التى تدخـل فى صـراع مع المجتمع القـائم · واكـد تورين على أن هـذين الفرعين من علم الاجتماع يجب أن يناضلا من أجل تقديم تفسير للحقائق، بدلاً من الاقتصار على « تبرير الذات واجترار الايديولوجية » · ويصبح قيام علم اجتماع المعارضة ممكنا ، فقط ، عندما تتاح الحقائق التى يفسرها

هـذا العلم ، أى عنـدما يبدأ المجتمع فى الاستجابة للتغيير ، ويشـرع فى تحديد أهـداف جديدة ، ويخبر « الصراعات الاجتماعية والثقافيـة التى يمكن من خلالها مناقشة اتجاه التغير » ٠

وظهرت بجانب هـذه المحاولة ـ التى بنيت على السياق الخـاص للمجتمع الفرنسى ـ لتحديد الاساس الاجتماعى للراديكالية الجديدة(*) وربطها بنظرية عن المجتمع، وتحديد علاقتها بالحركةالعمالية ، وبالماركسية، ظهرت بجانب هذه المحاولة ، محاولات مناظرة فى مناطق أخرى : فى المانيا فيمـا يعرف بالنظرية النقـدية ، وبدرجة أقـل من الصرامة فى البلدان الناطقة بالانجليزية فى كثير من كتب المدخل التى عالجت عـلم الاجتماع النقدى ٠ ويقدم كتاب البريش فيلمر(٧) Albrech Wellmer مدخلا مفيدا ـ بالرغم من عـدم سهولته ـ للنظرية النقدية ٠ ولقد تضمن عرضة لهـذه النظرية ثلاثة موضوعات اساسية مترابطة : اولهـا تطـور الافكار داخل مدرسـة فرانكفورت لعـلم الاجتمـاع ـ بـدءا من كتـابات هوركهايمر Horkheimer فى الثلاثينات وحتى كتابات هابرماس Habermas فى نهاية

(*) يشير مفهوم الراديكالية الى الفكر الاجتماعى والسياسى والسلوك العملى المرتبط به الذى يطالب بضرورة أحداث تغيرات جذرية ومباشرة فى النظم القائمة ، ولقد ظهرت الراديكاللية مع ظهور حركة التغيير التى صاحبت الثورة الفرنسية ثم وصلت الى أقصى درجات اكتمالها فى المـاركسية ٠ ولقد ظهرت منذ الخمسينات من هذا القرن موجة من النقد والمعارضة فى المجتمعات الغربية جمعت فصائل من الطلبة والمثقفين والمتخصصين فى العلوم الاجتماعية (والتى ارتبطت بالحركات التى يتحدث عنها توربن هنا) ٠ وأطلق على حركة النقـد والمعارضة هذه « الراديكالية الجديدة » تمييزاً لها عن الراديكالية بصورتها التى عرفت فى القرن المـاضى ٠ كما أن تقلص اليسار قبل ظهور هذه الحركة قد جعل من السهل وصف أى حـركة تظهر وتتخذ اتجـاهاً يساريا أو نقديا بأنها حركة جديدة ٠ هذا فضلا عن أن هذه الحركة الفكرية قـد راجعت بعض الأفكار المـاركسية كدور الفكر فى أحداث الثورة ، والدور التاريخى للعمال ، الأمر الذى جعلها تتميز بشدة عن الراديكالية المـاركسية ٠ وربما كان هذا هو السبب الرئيسى فى وصف هـذه الحركة الفكرية بالراديكالية الجديدة ٠ أنظر :

R. Berki, " Marcuse and The crisis of New Radicalism " **The Journal of Politics**, Feb. 1972.

وانظر أيضاً المرجع التالى :

أحمد زايد ، **عـلم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية** ، دار المعـارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠ الفصل السادس ٠

(٧) Albrich Wellmer, **Critical Theory of Society**, (New York, 1971). المترجم

الستينات ؛ وثانى هذه الموضوعات هو الارتباط بين هذا التطور والتغيرات التى طرأت على البنـاء الاقتصـادى الاجتماعى للمجتمعات الرأسمالية الغربيـة ؛ أما الموضـوع الاساسى الثالث فهـو يمييز النظرية النقـدية عن التفسير الهرمنيوطيقى(*) (التأويلى) hermeneutic للأحـداث الاجتماعية من ناحية وعن الماركسية من ناحية أخرى ٠

ظهرت بعض الافـكار الأولى لمدرسـة فرانكفورت فى سلسلة من المقالات نشـرت فى منتصف الثلاثينات(٨) ، اعتمد عليها فيلمر اعتمادا اساسيا فى تحليله ٠ وينظر علمـاء وفلاسـفة مدرسـة فرانكفورت الى أعمالهم النظـرية باعتبـارها جزءا من النضال الثورى الذى تقـوم به البروليتاريا ضد الرأسمالية ٠ لقـد تمثل الموضوع الاساسى الذى وجه اليه نقدهم النظـرى ـ كمـا هو الحـال عنـد ماركس ـ فى الاقتصـاد السياسى ؛ وذلك بسبب ظروف الفترة التاريخية التى كتبوا فيهـا ـ أعنى انهيـار الرأسمالية ، والدور الهام الذى لعبتـه حركة الطبقة العاملة فى محـاربة الفاشية (بالرغم من هزيمتهـا فى المانيـا ، وبالرغم من تفاقم الانقسـامات الداخليـة بين الشـيوعيين والفوضـويين والاشـتراكيين الديموقراطيين) ٠ ويعنى هـذا أن مفكرى مدرسة فرانكفورت قد انشغلوا بتقـديم تحليل لتناقضات الرأسمالية يهيىء لقيـام نضال ثورى من أجل تحقيق الاشتراكية ٠

ومع ذلك فقـد أضاف هوركهايمر فى هـذا الوقت عنصرا آخـر

(*) يميـل المهتمـون بالتفسـير التـأويلى للنصـوص الأدبيـة الى ترجمـة مصطلح Hermeneutics « بالتأويلية » ، بالرغم من احتفاظهم بالكلمة الانجليزية معربة هجائيا ٠ انظر : نصر ابو زيد ، « الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص » ، مجلة **فصـول** ، المجـلد الأول ، العـدد الثالث ٠ ابريل ١٩٨١ ٠ ويبـدو أن كلمـة « التأويلية » أقرب الى المعنى المستخدم فى علم الاجتماع من حيث أنها تشير الى الفهم التأويلى أو الفهم الذاتى ٠ المترجـم

(٨) ظهرت هـذه المقالات لأول مرة فى Zeitschrift fur Sozialforschung وتم جمعها فى المؤلف التالى :

Max HorKheimer, Kritische Theorie (2 Vols. Frankfurt, 1968).

للنظرية النقـدية · فبالرغم من أن البروليتاريا فقـط هى القـادرة على أن تاخـذ النظرية النقـدية على انهـا تعبر عن الوعى الذاتى لنضالهـا السياسى ، فانها لا تفعل ذلك بالضرورة ؛ فموقف البروليتاريا « لايقـدم ضـمانا بمعرفة صادقة » · ومن ثم فان الثورة سـوف تتحقق فقط من خلال الارادة الواعيـة للجماهير اذا وجـدت على مستوى الفـكر وعلى مستوى تنظيم حركة الطبقة العاملة « عملية ناجحة للتعجيل بقيام المجتمع الرشـيد » ·

وبعد أن تجـدد العمل فى مدرسـة فرانكفورت بعـد عام ١٩٤٥ ، أصبحت هـذه الفـكرة التى تؤكد على أن تحقيق الاشتراكية يقـوم على تأكيـد ضرورة خلق مجتمع متحرر ورشـيد ـ وهو أمر يجب أن يأخـذ شكلاً عمليـا فى تنظيمات جماهيرية ـ أصبحت هذه الفكرة ذات أهميـة متزايدة فى النظرية النقـدية ، وبنـاء على ذلك فقـد أضحى الاهتمـام بالاجهزة الثقافيـة والسياسيـة للرأسماليـة الحديثـة بديلاً للاهتمـام بتناقضاتها الاقتصادية · ولقـد جاءت أعادة التوجيه النظرى(*) هـذه كجزء من ردود الفعل نحـو الصياغة الستالينية للماركسية ، والتى ردت فيهـا الاشتراكية الى مجرد تعبير عن صورة المجتمع ، التى ظهرت الى الوجود بشـكل ميكانيكى ، كنتيجة التحول الاقتصـادى الذى تم انجازه تحت قيـادة الحزب الشيوعى ؛ وان كانت قـد جاءت ايضـا كاستجابة للوضع الاجتمـاعى للطبقـة العاملة الذى طرأت عليـه بعض التغيرات كنتيجة لجنيها لثمار الرأسمالية الخاضعة لتوجيه الدولة ·

ولقـد اهتم فيلمر اهتماما خاصا بأول هـذه التأثيرات ، وذلك فى فصـل بعنوان « الوضعية المستترة فى فلسفة التاريخ عند ماركس » · واكتشف هـذه الوضعية فى مفهوم ماركس عن « العلم الطبيعى » للتاريخ البشرى ، حيث يفهم النشاط البشرى ـ بمعنى الابداع الذاتى للانسان ـ

(*) المقصود هنا اعـادة النظر فى التحليلات التى قدمتهـا المـاركسية بشـأن التغير الثورى ودور الجماعات المختلفة فيه ·

المترجـم

على أنه مجرد عمـل Labour ، بمعنى انتاج الاشياء · لقد نظر ماركس الى تتابع الأشكال المختلفة للانتـاج ـ بما فى ذلك التحـول الى المجتمع اللاطبقى ـ على أنهـا عملية ضرورية حتميـة · وبالرغم من أن ماركس قـد عبر (خاصة فى كتاباته المبكرة) عن فهم مختلف للنشـاط البشرى على أنه التفـاعل الانسـانى أو الممارسـة الفعليـة Praxis (٩) ، فان المفهـوم الوضعى ـ وفقا لمـا يذهب اليـه فيلمر ـ قد سيطر على أفكار ماركس كما سيطر على الماركسية فى صورتها المحدثة · ويمكن صياغة هذا المفهوم الوضعى فى قضية تفيـد « بأن تعاظم نمـو التقدم التقنى ـ والذى بدأ بظهور نمط الانتاج الرأسمالى ـ يجب أن يفهم على أنه تعاظم فى نمو الحـرية » (ص ٧٣) · ويذهب فليمر الى أن هـذه القضية « تمثل نقطة بداية لتغير تكنوقراطى خاطىء للتاريخ ، الذى يصبح واقعا عمليا من خـلال مجموعة من المديرين ذوى المعرفه ، يمثـل وجودهم ضرورة تاريخية » (ص ٦٩) ·

ويمكن أن نكتشف درجة انحراف النظرية النقدية عن الماركسية من الخلاصة التى توصل اليها فيلر :

« ما دام التاريخ نفسه ، قد خيب كل الآمال فى ايجاد وسيلة للتحرر تقوم على أساس اقتصادى ، فليس من الضرورى فقط أن ينصب التحليل النظرى على تكوينات جديدة كلية من الابنية التحتية والفوقية · فالحقيقة أن نقـد وتغيير البناء الفوقى له أهمية جديدة وحاسمة بالنسبة لحركات التحرير · فمن أجـل أعادة صياغة رؤية ماركس للمستلزمات الاساسية لثورة ناجحة فى البلدان الرأسمالية ، يصبح من الضرورى أن نتحدث عن الاشتراكية الديموقراطية ، والعدالة الاشتراكية ، والاخلاق الاشتراكية ، والوعى الاشتراكى ، ضمن مكونات المجتمع الاشتراكى ،الذى يجب أن ينمو فى رحم النظام الرأسمالى » (ص ص ١٢١ ـ ١٢٢) ·

---

(٩) انظر مناقشة مفصلة لهـذه القضية فى المصـدر التالى :
Jürgen Habermas, **Knowledge and Interests** (London, 1971).

وأخيراً فقد ذهب فيلر الى أن مفهوم ماركس عن الطبقة قد فقد ــ الى حد كبير ــ فائدته كاداة تحليلية ، فامكانية التنوير قائمة فقط بالنسبة لهؤلاء الذين يشاركون بطريق مباشر أو غير مباشر فى العلم ، وذلك لأن العلم قد أصبح اسلوب حياة بالنسبة للمجتمعات الصناعية · وبذلك فلم يعد بالامكان تفسير التعارض بين الفكر النقدى والفكر التقليدى وفقا للمعنى السياسى الخالص كتعبير عن الصراع الطبقى ، ان مثل هذا التفسير يجب أن يقوم على اساس من العلم ذاته ــ أى فى الجامعات بعبارة أخرى ·

ويبدو أن هذا التصور الأخير للنظرية النقدية يحيل النضال من أجل تحقيق مجتمع جديد الى مجرد تنافس فكرى · وهى صياغة تقف على النقيض من صياغة تورين ، التى بالرغم من أنها انطلقت من افكار مشابهة عن دور العلم فى عملية الانتاج وتقلص الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا ، قد فهمت مظاهر العداوة فى مجتمعات ما بعد الصناعة على أنها تتجسد فى صراعات سياسية بين طبقات جديدة · فقد أكد تورين على الاستمرارية التاريخية للحركات الاجتماعية والايديولوجيات ، وأدرك أن الطبقة العاملة ماتزال تشكل عنصرا حيويا فى أى حركة راديكالية ، على الرغم من تغير ظروف حياتها ·

ولكن النظرية النقدية التى قدمها فيلمر تهمل الماضى وتفصل نفسها فصلا تاما عن حركة العمال التقليدية · والاخطار الكامنة فى مثل هذه النظرة لا تخفى على كل ذى عين · فبالامكان وفقا لهذا التصور أن تنحصر النظرية النقدية داخل وسط فكرى ضيق يقدم نقدا متسقا ولاذعا ، ولكنه يائس أمام عالم اطفئت فيه الرغبة فى التحرير · بحيث لا يمتلك الناقد من القوة ما يمكنه من تغييره · والمحقق أن هذه هى نفس الصورة التى قدمها ماركيوز فى كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » · وكما لاحظ فيلمر نفسه ، فان النظرية النقدية قد اعتبرت نفسها ــ فى تطورها الأخير من خلال أعمال اودورنو Adorno وهوركهايمر وماركيوز ــ « ضربا من ضروب الاحتجاج ، غير أنه احتجاج عقيم فى الواقع » ·

ولقد تغلبت الحركة الراديكالية للطلاب لبعض الوقت على الميل نحو التشاؤم والانسحاب الذى ظهر فى أعمال ماركيوز ؛ ولكن هذه الحركة نفسها قد أثبتت أنها حركة محدودة ، وغير مؤكدة بحيث تعجز عن تقديم نواة لقوة تستطيع أن تغير المجتمع بحق · لقد حاول فيلمر ـ الذى لم يكن راغبا فى قبول المعارضة العقيمة بين الناقد المستنير ، والدنيا التى طغى عليها الجهل ـ ان يحل المشكلة من خلال ربط النظرية النقدية بمهمة توضيح « التناقضات بين المجتمع على النحو الذى يبدو عليه ، وما يمكن ، وما يجب أن يكون عليه فى ضوء امكانياته التقنية المتاحة ومعانى « الحياة الخيرة » المعترف بها داخله · وفى هذه الحالة فان الاختبار النهائى للنظرية سوف ينحصر فى أن يرى اعداد كبيرة من الأفراد ، هذا التناقض ومن ثم يدخلون فى نضال من أجل تحقيق « الحياة الخيرة » كما يرونها ، معارضين بذلك الحياة القائمة بالفعل ·

ويعد ذلك استرجاعا لما أعلنه ماركس (عام ١٨٤٣) حيث قال « اننا نطور مبادىء جديدة للعالم من خلال مبادئه القائمة بالفعل ··· ونميط اللثام عن الطبيعة الحقيقية لنضالاته ··· ونفسر افعاله » · غير أن ما ينقص النظرية النقدية هنا هو شىء يناظر اكتشاف ماركس بعد ذلك للبروليتاريا ؛ بمعنى تحديد جماعات اجتماعية فعلية ، تنخرط بالفعل فى العديد من الصراعات ، بحيث تفسر أفعالها بأنها تنمو فى اتجاه رفض عام للصورة الموجودة من المجتمع ومحاولة اقامة نظام اجتماعى جديد · ومن هذا المنطلق فان المناقشة الفلسفية التى قدمها فيلمر تعتبر مناقشة غير شاملة ، وربما مضللة من حيث أنها تميل المشكلة برمتها الى مناظرات علمية ، فهى بحاجة الى أن توسع من نطاقها لتصل الى مستوى البحث السوسيولوجى الذى قدمه تورين ·

أما الصلة التى تربط بين عمل فيلمر وعمل تورين فهى محاولة كل منهما تقديم نظرية بعد ـ ماركسية لمجتمع ما بعد الصناعة · لقد قدم نورمان بيرنباوم Norman Birnbaum فى مجلد يضم مجموعة

مقـالات(١٠) (كما فعـل فى كتـابه السـابق بعنـوان «أزمـة المجتمع الصناعى »(*) ، قـدم تحليلا دقيقـا للتغيرات التى حدثت فى المجتمعات الصناعية ، بالاضافة الى تقييم نقـدى للمحاولات التى بذلت لفهم هـذه التغيرات · ولقد عرض رأية العام حول هـذا الموضوع فى مقال بعنوان « الرأسماليـة الحديثـة فى الولايات المتحـدة » حيث كتب يقـول « ان ما نواجهـة هو موقف يكشف عن قدر من اللاتحـدد التاريخى ··· ان الموقف الـذى نواجهـه لا يشـبه الموقف الذى واجهه الرعيـل الأول من الماركسيين فى وجـود قوى تاريخية جديدة » · بل أن برنباوم قد أخضع ـ فى واحـد من أجـود مقالاته ـ الماركسية نفسها لتحليل نقدى حـدد فيـه مظاهر النقص الاساسية التى تعانى منهـا على النحـو التـالى : الصعوبات المرتبطـة بفكرتى الطبقـة والصـراع الطبقى فى مجتمعات أواخر القرن العشرين ؛ الفشـل فى تحليل القـوة السياسية بطريقـة أخـرى تختلف عن تأكيـد اعتمـاد هـذه القوة على موقف الطبقـات الاجتماعيـة ؛ واهمال التغيرات الثقافية وما يمكن أن تتركه من تأثيرات على الحياة السياسية ·

وفى مكان آخر من كتابه فحص بيرنباوم بعض الأفكار والتفسيرات التى ظهرت ، اما كمراجعات للنظرية الماركسية ، أو كبدائل لها ، واثبتت أنه منصف الى حد بعيد كناقد لهـذه الصياغات النظرية الجديدة وللصور الدوجماطيقية والمتزمتة للماركسية نفسهـا · ولقد لاحظ بيرنبارم بعـد أن استعرض بعض الكتابات التى تناولت فكرة « ثورة ما بعد الصناعة » Post - Industrial Revolution أن هذه الفكرة « لا يمكن استخدامها فى مناقشـة جـادة دون أن يكون مستخدموها على استعـداد لأن يضطلعوا بمهمة تحديد القـوى الاجتماعية الموجودة فى خضم هذه الثورة تحديدا

---

(١٠) Norman Birnbaum, **Toward a Critical Sociology,** (New York,1971).

(*) انظر عرضاً مفصلا لهـذا الكتاب باللغـة العربية قـدمه عزت حجـازى فى **مجلة عالم الفـكر** فى عـددها الثالث ، المجـلد الثانى ، ١٩٧١ ·

دقيقا ، وكذلك اتجاه هذه القوى ، والنتائج المترتبة عليها فيما يتعلق بمستقبل المجتمعات الصناعية » · (ص ٤١٤) (هذا بالرغم من أن ذلك بالضبط هو ما فعله تورين) · واكد بيرنباوم فى مكان سابق من هذا المقال ، الأهمية المستمرة لتركيز الملكية الخاصة ، رافضا الفكرة التى تقول بأن المجتمعات الصناعية تسيطر عليها الآن صفوة تكنوقراطية · ولكنه أدرك فى نفس الوقت أن الصفوة التكنوقراطية أو الصفوة التى تتسلح بالمعرفة والتى لاتستحوذ على ملكية ، ما هى الا ظاهرة ذات دلالة فى هذه المجتمعات ·

والسؤال المطروح الآن هو الى أى حد تفتح هذه المقالات الطريق أمام علم اجتماع نقدى ؟ المحقق أنها تقدم نقدا عميقا وشاملا للكثير من التفسيرات المعاصرة للتغيرات التى تحدث فى المجتمعات الصناعية (مثال ذلك تشريح بيرنباوم لفكرة روزاك Roszak عن الثقافة المضادة)· وقد ساعدت هذه التفسيرات على كشف مظاهر عدم الاتفاق والغموض بين المفكرين الراديكاليين · غير أنها لم تحاول صياغة نظرية نقدية بديلة · وربما يكون ذلك بمثابة انكار للذات له ما يبرره فاذا كان موقفنا يتسم باللاتحدد التاريخى كما ذهب بيرنباوم ، فان بامكان الفكر النقدى ـ بالرغم من اهتمامه المتزايد بهدف اقامة مجتمع متحرر ـ أن يعكس هذا الوضع من الناحية الوضعية والتفسيرية ، بل يجب عليه أن يفعل ذلك ·

وفقا لما سبق فان أحد مظاهر الخلاف الفكرى داخل الحركة النقدية يرتبط بدرجة عدم وضوح وتحدد الموقف الذى نعيش فيه ، وعدم وضوح الرؤية فى المستقبل · ويبدو أن الخلاف فى وجهات النظر بين فيلمر وتورين من ناحية ، وبيرنباوم من ناحية أخرى ينبع من الاختلاف فى البيئات الاجتماعية التى يمارسون فيها نشاطهم · فالناقد الاجتماعى فى كل من فرنسا والمانيا يشكل أراءه داخل حركة العمل الاشتراكية وفى اطار تراث مؤثر للفكر الماركسى · ومن ثم فان التغيرات التى طرأت على طابع الطبقة العاملة (وعلى البناء الطبقى بصفة عامة) والمشكلات التى تثار داخل الماركسية فى محاولة فهم هذه التغيرات ، قد

تدفع المفكر الناقد الى مراجعة الماركسية ، أو صياغة نظرية جديدة ، تقوم على اساس من الماركسية · ويظهر هذا العمل النقدى وهذا التجديد الفكرى فى وسط مايزال يزخر بالحركات الاجتماعية النشطة ذات الانتشار الواسع والتى تنخرط فى نضال سياسى من أجل تحقيق المجتمع الاشتراكى ·

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فان غياب الحركة العمالية الاشتراكية ، وكذلك أى أساس متين للفكر الماركسى يعنى ـ من وجهة نظر الفكر النقدى ـ أن الموقف الاجتماعى لا يتسم بالتحدد لفترة من الوقت ، وبناء عليه ، فان مظاهر الغموض التى تشوب الموقف الحالى تعد تكرارا ـ على نطاق أوسع ـ لتلك التى ظهرت فى وقت سابق فى هذا البلد · ولقد اعترف ويتشارد فلاكس Richard Flacksبذلك فى مقال حديث(١١)، اعتمد على مناقشات دارت بين جماعة من العلماء الاجتماعيين من ذوى الميول الراديكالية ·ذهب فلاكس الى القول بأنه من المفيد ، لكى نثير الأعمال الفكرية التى تساعد على تحقيق تحول اجتماعى ، أن نحدد الهدف على النحو التالى : اذا تصورنا أن حركة اشتراكية منظمة ، أو حزبا اشتراكيا منظم منظما قد وجد فى الولايات المتحدة ، ما هى المهام التى كان على علماء الاجتماع الذين يناصرون هذا الحزب أن يقوموا بها ؟

وحدد فلاكس ، منطلقا من هذا الافتراض ، حدد المشكلات الرئيسية التى ستشكل موضوع علم الاجتماع النقدى ، وهى مشكلات بعضها نظرى ولكن معظمها امبيريقى · وتشبه هذه المشكلات الى حد كبير تلك التى بنى عليها تورين تحليله ـ امكانيات المجتمع الصناعى من منظور اشتراكى ، ومسألة وسائل التغيير الممكنة ، والطرق التى من خلالها يمكن أن تطور الجماعات الاجتماعية الجديدة ـ من مثقفى العمال والفنيين والمديرين ـ نظرة راديكالية وفعلا سياسيا راديكاليا ·

---

(١١) R. Flacks. " Toward a Socialist Sociology : Some Proposals for work in the Coming Period " **The Insuragent Sociologist, 11 (2) (Spring 1972).** .. ..

وحدد فلاكس بناء على ذلك بعض المشكلات المرتبطة ببحث هـذه الموضوعات نشير منهـا الى المشكلات التالية (والتى لخصتها من أجزاء مختلفة من مقاله) : الى أى حد يمكن أن تقلل التكنولوجيا القائمة من العمل البشرى الرتيب ؟ ما هى الحواجز السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التى تمنع هذا التطور فى المجتمع الرأسمالى ؟ هل نظرية ما بعد الصناعة **Postindustrialism** يمكن أن تنشر فى بلد واحد(*) ، وهل يمكن قيام المجتمع ما بعد الصناعى بدون امبريالية ؟ وما هى درجة استعداد الأمريكين (ومن منهم بالتحديد) للتضحية بأثمان بعض السلع والبضائع ، لتستخدم فى تخفيض كمية العمل ، وتحسين البيئة الطبيعية والحضرية ، وتحقيق حيـاة أفضل فى المجتمع المحلى ، وتقديم مزيد من التعليم والخدمة الصحية وغيرهما من الخدمات ؟ ما هى الدلائل التى تشير الى وجود وعى جديد لدى الطبقة العاملة (بين العمال المتعلمين على سبيل المثال) ؟ ما هى الروافد الاساسية لتدعيم أو مقاومة حركات التغير الراديكالى الموجودة بالفعل ؟

أما الاختبار النهائى لعلم الاجتماع النقدى أو علم اجتماع المعارضة، فانه يرتبط بتطور ، أو عدم تطور ، حركات اجتماعية واسعة النطاق تهدف الى اقامة شكل للحياة يقوم على المساواة وعدم القهر ، وتشرع بالفعل فى اقامة هذه الحيـــاة · ومع ذلك تظل النظرية قائمة على المســتوى الافتراضى · وما يبرر وجودها ، ويجعـل البحث النظرى فيهـا جـديرا بالاهتمام ، هو احتمال تجدد النشاط الذى يهدف الى تغيير المجتمع بنفس الطريقة التى عبرت عنها حركة العمال والحركات الاجتماعية الجديدة فى العشر سنوات الماضية ·

(*) أى فى دولة واحـدة دون كل المجتمعات المتقـدمة ·

المترجـم